خطبة بريكليس الجنائية

محمد حمدى إبراهيم

مقدمة :

يندر الكتاب الثاني من تاريخ ثوكيديديس حول الهجوم الليلي الذي شنه الطيبيون على بلاتيا، وحول أول غزوة قام بها تحالف دوليات البيلوبونيس ضد إقليم أتيكا، والإجراءات الدفاعية والهجومية التي أتخذها بريكليس إزاد ذلك. يلي هذا سرد الخطبة الجنائية لبريكلس، وهي الخطبة التي يرثي فيها شهداء العام الأول من الحروب البيلوبونيسية وهو عام 421ق.م، وهي الحرب الضرورية التي دامت حتى عام 404ق.م، بعدها نجد وصفًا للطاعون الذي استشرى في أثينا وأنهك قومها ثم شرحاً لسياسة بريكلس ووصفًا للحصار بلاتيا والانتصارات التي حققتها فوزي. زميل بريكليس وغير ذلك من الأحداث التاريخية. ولقد دارت كل هذه الأحداث التي احتوائها الكتاب الثاني خلال سنوات ثلاث فقط من الحروب البيلوبونيسية (أي من عام 421-419ق.م).

ولقد بدأ الصراع بين أثينا واسبترطة منذ أيام ثيموستكليس الذي دأب على انتهج سياسة معادية لاسبترطة، ومن بعده حاول كل من أرستيديس وكمانون اتباع
سياسة ترمي إلى مهادنة أسبرطة وتجنب الحرب معها، إلا أن هذا الاتجاه قرب أن يقترن من قبل أسبرطة مما خلق نوعاً من الاستياء والسخط ضدّها في مدينة أثينا.

ولقد أدى هذا الوضع المتكرر إلى عقد حلف بين أثينا وأرتجوس عام 461 ق. م. وبعد ذلك بسنوات، بدأ نجم بريكليس يسطع في سماء السياسة الأثينية، عندما بدأ نشاطه باتباع سياسة استراتيجيّة دفاعية هدفها الوقاية من الغزو الإسبرطي.

وبمقدّسّة هذه السياسة الدفاعية كان على أثينا أن تتجنب الاعتصام في حرب بحرية مع أسبرطة قد الإمكان، وأن تترك سهل أثينا أمام الغزاة كمنطقة واقية يتم فيها استيعاب الغزوات التي تشنها أسبرطة على أثينا، في الوقت الذي كان الاستعداد فيه يجري على قدم وساق لتطوير الأسطول الأثيني وتدنيعه كي يتمكن الجيش الأثيني عن طريقه من مباغتة العدو في عقر داره، عن طريق إزالة القوات المحملة بحرًا إلى سواحله.

وكان بريكليس يأمل أن تؤدي هذه الإجراءات إلى إضعاف أسبرطة وإنهاك قوتها، ويأمل في الوقت نفسه أن تتمكن أثينا من تعويض خسائرها المتمثلة في إتلاف محاصيلها بسبب الغزو المستمر أو الحصار، بحيث تضطر أسبرطة في نهاية الأمر، وأمام الصعود الأثيني، للتخلي عن سياساتها العدوانية، ومن ثم تسعي لنبذ الحرب. ولا جدال أن مثل هذه الخطة بطيئة المفعول كما أنها تستغرق وقتاً ليس بالقصير من أجل تنفيذها، لكنها قد تصبح ناجحة على المدى البعيد، وإن كان ذلك رهناً بقدرة أثينا الدفاعية، وتمكنها من التحمل والصعود. وبحول عام 431 ق. م. استطاعت أثينا أن ترسل للحرب أسطولين، وأولاها قوامه مائة سفينة تحت قيادة كاركينوس تم تعزيزها فيما بعد بخمسين سفينة من جزيرة كوركيرا، والثاني مكون من ثلاثين سفينة تحت إمرة كليوبومبس. وتمكن هذان الأسطولان من تخريب سواحل العدو ونهبها، ومن محتل عدد من مراكز الساحلية وقهر القوات الدفاعية المتمركزة هناك. غير أن الأثينيين تجنبا الدخول مع العدو في معارك ذات قوات كبيرة بعدد، ويفضل هذه الخطة.
الاستراتيجية تمكنت القوات الأثينية من الاستيلاء على كيفالاتيا بغير أن تخوض حرباً تستحق الذكر.

بعد هذه الحملة البحرية الناجحة، ألقى بريكليس خطبة الجنائية المشهورة التي رش فيهما شهداء هذا العام من الحرب البيلوبونيسية، وشرح بريكليس في هذه الخطبة وجهات نظره في الديمقراطية الأثينية: فوضّح أن السياسة التي انتهجها خلال فترة عمله في القيادة الحاكمة هي سياسة كان من الطبيعي أن تتبناؤها مدينة أثينا بحكم موقعها ودورها ومكانتها بين الدولتين الإغريقيتين، وهي سياسة نابعة من واقع الشعب الأثيني، وتعتبر انعكاساً لطبيعته حيث إنها مؤسسة على وجهات نظر صائبة في الحياة، وعلى فلسفة يؤمن بها الأثينيون. ومع ذلك فقد تعرضت سياسة بريكليس سواء في الداخل أم في الخارج للكثير من الهجوم والنقاد، كما أنهم هم نفسهم بإفساد الجماهير، لأنهم خصصوا مكافآت لشاغلي الوظائف العامة في الدولة والمحلفين نظير حضور جلسات المحاكم، وهم يدل على المعارضات الشديدة التي تلقاها بريكليس في دارونديس السياسي الفيلسوف قد حاكم ثم نفي من أثينا لأن بريكليس فيما يظن، قد استعان به في رسم سياسة أثينا الخارجية. وأيًا كان الأمر فقد كان بريكليس أهم شخصية سياسية ظهرت في أثينا مهماً اختلفت حوله الآراء، كما أنه بلغ أوج شهته خلال عامين 411 - 406 ق. م.، أما عام 419 ق. م.، وهو العام الذي توفي فيه بريكليس في بعد نقطة تحول كبيرة في تاريخ أثينا السياسي والعسكري معاً، ومن المصادفات العجيبة أن يكون هذا العام هو نفس العام الذي ولد فيه الفيلسوف أفلاطون.

ولم يكن هدف بريكليس في خطبة من الإشادة بأثينا وإظهار أن لها الفتح الحقيقي على أسرابته هو مجرد تملق مشاعر الجماهير أو نيل الحظوظ لديهم، بل كان غرضه الأول هو إقناعهم بأن حياة أرغوس وأسمى تنظيرهم إذا ما تنبنا السياست التي أشرفت القيادة السياسية بزعامته على رسمها ثم على انتهاؤها. ومن الواضح أن بريكليس كان
يعتقد أن الديمقراطية الأثينية يمكن أن تظل مزدهرة لو أنها ظلت داخل نطاق الاعتدال، ولن تنجح إلى التطرف، كما أنه دافع عن مبدأ تخصيص مكافات القائمين على الوظائف العامة بتوسطي أن كل مواطن أياً كان موضعه مطالب بأن يكرس كل موارده وقدراته لصالح الدولة ومن أجلها، ولن يلتقي لولاية بدونها أن تقدم له البراهيم الكافي على أنها تزاهج وتتهتم بمصلحته.

يربط بريكيليس في خطابه الجامعية ببطأ وشيقاً بين السياسة والثقافة حرصاً منه على أن يظل رجال السياسة من بيئة الغريبانية وعلى أن يتخلص المواطنين من النزعة الانتمالية ومن النظرية الأقلية الضيقة، وما يدل على حساسة بريكيليس وبعد نظره في هذا الصدد أنه ركز على ضرورة هذا الارتباط الوثيق، على حين جنح كليوبي الرغيم البيوماجوجي الشهير إلى اعتبار أن أفضل ما يمكن لمواطن أن يحظى به هو أن يجمع بين نقص المعرفة والمتعلقة بالاعتدال وضبط النفس.

ولقد انتهى أرسطو في النهاية كاتب الكوميدي الساخر لوجهة نظر بريكيليس بينما هاجم رأي كليوبي وسخر منه بشدة، ثم يتحدث بريكيليس عن ضرورة اهتمام الفرد بقضايا وطنه العامة، ويفرق في هذا الصدد بين طائفتين من المواطنين يرفض هو موقفهما من هذه القضايا العامة، فيطلق على المواطنين غير المكرر بالقضايا الدولة كلمة أخريتس، بينما يسمى العزف عن الاهتمام بالسياسة أصلاً كلمة أورايمون.

غير أن بريكيليس لم يكن يهدف من وزراه إلى مطالبة المواطنين بأن يكرس كل وقته من أجل الدولة، بل إنه يفاخر - علي العكس من ذلك - بأن الثقافة الحق هو الذي يخصص جزءاً من وقته ليس بالقليل لشخصه الخاصة، ولاهتماماته الأسرية، وفيما يتعلق بصداقاته رأينا بنيداً بنت عليه أثينا، بينما يشير بريكيليس بأن أثينا تؤمن بصداقاتها مع الآخرين على أساس أن لها اليد العليا في العلوم والفنون، بالإضافة إلى حلفائها وليس العكس، وهو مبدأ يثبت عليه أثينا المبادرته منذ البداية، ثم ينتقل من هذا إلى القول
بأن أثينا لا تضع قيوداً على حركة الأجانب الموجودين على أراضيها، كما أنها لا تقل من حريرتهم في التنقل أو المعرفة أو المشاهدة تحت أي زعم.

ثم يشهد بريكليس بالنظام الديمقراطي الأثني الذي يحظى فيه كل فرد بحق متساوي فيما يخص مصالحه الشخصية، والذي يختار فيه الفرد المناصب العادية بناء على مزاياه وفضله وليس بسبب مستواه في المجتمع. ثم يثبت على شجاعة الأثنيين ويسألهم في ميدان القتال وتغفيهم على الاسبرطيين في موطن فخورهم، رغم أن الأثنيين لا يكونون جل وقتهما للتدريبات العسكرية واستعداداً للقتال منه يفعل الاسبرطيين. بعد ذلك يوضح أن المواطن الأثني ليس رخواً بسبب حبه للجمال، وأن ما يخلو المرء ليس الفقر بل القناع من الكر والعمل.

وفي الحق أن كل عبارة في هذه الخطبة تزخر بالمعنى الجلي والمعاني العميقة وتعتاج إلى التأمل واستخلاص المغزى، وتستجيب المقارنة، فهي خطبة لا يفتقر المتحدث فيها إلى الثقة بالنفس ولا إلى المقص الفلسفى ولا إلى الخلفية الحضارية ذات الجذور الراسخة.

ومن العسير على مؤرخ دقيق مثل ثوكيديديس صاحب رؤية تاريخية أصيلة أن يجذب الاهتمام أو يمنح القارئ نظراً لصووبة أساليبه وجفاف لغته وجنوحه إلى التعبير الفلسفي وتركيزه الشديد الناتج عن رغبته في اعتصار العبارة والتعبير عن حسد من المعاني في أقل عدد ممكن من الكلمات، واهتمامه كذلك بترك مساحة كافية للقارئ للتحليل والحكم على الأمور. كما أنه يكتب في تاريخه عن الكيفية التي يمكن أن تصل الأحداث عن طريقها إلى نهايتها، ومن ثم لم يلجأ إلى الأساليب التي تسود في عصور الاضمحلال، وهي أساليب تمضي إلى إمتناع القارئ وتحاكي إزعاجه. من أجل ذلك يحتاج القارئ إلى صبر وانظاره لفهم أساليب ثوكيديديس وتخطيط طريقة عرضه وأنه يواجه على نسب ترتيبه للحقائق. وهو يخبرنا بنفسه أن هدفه هو معرفة الحقائق الواجبة ثم
الاضطلاع بتفسيرها:

γνώμαι τὰ δεόντα καὶ ἐρμηνεῦσαι ταῦτα.

لقد وضع ثوكيديدس نصب عينه، لا يمت بقدر ما يفيق، ولا يسرد بقدر ما يشرح ويفسر. ولكن نقف على مكانة ثوكيديدس بين كتاب النثر الإغريق لا بد أن نذكر أن النثر قد شهد في أثينا خلال الفترة الزمنية القصيرة التي تفصل بين هيرودوت وثوكيديدس تطوراً ملحوظاً وسريعاً تخصص في نهاية الأمر عن ما يعرف باسم - النثر الأثيوبي، الذي أصبح آمناً يحتذى في بلد اليونان كلما. ويرجع جزء كبير من هذا التطور اللافت للنظر إلى إزدهار الخطابة السياسية. إذ أن بريلسكي عادة كتابة الخطابة السياسية وإعدادها إعداداً متقدناً قبل إلقائها في الجمعية العامة، وكان بريلسكي يهدف من وراء ذلك - كما أوضح ثوكيديدس - إلى أن يضمن التحديات الواجب والنقاش اللازم لكل قضية قبل أن يجري التصويت عليها من قبل الجماهير في الجمعية العامة. ورغم أننا لا نعرف في الحقيقة مدى إسهال بريلسكي في صنع هذه الخطابات بمنح الصيغة الأدبية، إلا أنه من الواضح أن الديمقراطية الأثيوبي قد أدت إلى فورة خلاقة وشرارة مقدسة استثمرت نوراً في القبول، بحيث بات من العسير علينا أن ننسب الفضل في أمر ما إلى شخص بعينه فقط لأن الكل يسهم ولا يهم بأن يتقاضي ضمن الفضل. وعلى أي حال فإنما لا شك فيه أن الخطابة السياسية قد عدت في هذا العصر أكثر اقتراحاً من الأدب ومن الشعر بخصوصاً وتأثيره على ذي قبل.

ولقد أفاد ثوكيديدس من هذا الازدهار في مؤلفه التاريخي، إذ خصص أجزاءً لا ينسى بها من مثل هذه الخطابات السياسية، وشجعه على هذا اتجاه أنه كمؤرخ يريد أن يحتفظ بما أمكن بأسرائه الخاصة لتبقى في خلفية الأحداث، تاركاً لتراثه الحكم على الأحداث التاريخية من خلال أقوال صناع القرار من رجال السياسة أنفسهم.
ومخصصاً السرح للشخصيات الرئيسية كي تلعب بنفسها الأدوار المرتبط بهم فعلاً.
وتشكك الخطاب السياسية بوجه عام ما يقرب من خمس تاريخ ثوكيديديس، وهو أمرُ يدل على أهميتها ويشير في الوقت نفسه إلى أن مورخنا استخدمها كوثائق تاريخية.

ولقد اتفق كل من دينيسيوس (الذي عاش في عصر أوغسطس) وهرموجديس (الذي عاش في عصر ماركوس أوريليوس) على أن ثوكيديديس يجمع بين خاصيتين متناقضتين هما الخشونة في التعبير والسمو في الموسيقى التي تبنى بها العبارة.
وعماثان الصفانتين تنتميان إلى خصائص النثر المبكر كما يمثل في أعمال كل من أنتيفون وكريتياس، وينطبق الأمر ذا على استخدام البارارات التي تتضم أحكاماً بنية على الخبرة الذاتية (الاستبطانية) والتي تعرف تحت اسم 100، والتي ترد ببكرة عند ثوكيديديس والتي من شأنها أن تمنح أسلوبها ذلك السمو الذي أشرنا إليه أعلاه.

ومن الصعوبات التي واجهت ثوكيديديس رغبته في إيجاد مفردات تناسب ومضمون مؤلفه التاريخي، إذ كان النثر الأثيني آنذاك في طور طفولته ولم يكن قد تشكل بعد في لغة أدبية عالية المستوى. وكان لازماً على كيبان النثر أن يفتحوا بشكل أو بآخر خطي جورجيوس الذي كان يبذل قصارى جهدوه في الاستعانتة بخصائص الشعر من أجل تعريض جاف النثر. وفي هذا القدر لجا ثوكيديديس إلى تطعيم النثر السائد على أيامه بإضافة مفردات كثيرة نهلها من أعمال الشعراء، ومن كتاب النثر الأثينيين، وهنالك قفارات كثيرة في عمله تثبت أنه قد نهل مفردات كثيرة من كتاب التراجيديا، وأنه طور وأبدع كلمات لم تكن مستخدمة من قبل في النثر الأثيني.

غير أن ما يميز أسلوب ثوكيديديس في الحقيقة -إذا ما ضربنا صفاً عن النموض والجناف- هو قدرته الفائقة على تصوير الأحداث بطريقة درامية، بحيث يجعلنا، نحن القراء، قادرين على تخيلها، فهو قادر -كما يوضح لنا بلوتارخوس-
على أن يوفر لقارئه كلًا من الحيوية في الوصف والدرامية في التكوين، وثوب كيديسيس من أكثر الكتاب مهارة في إثارة كل من انفعالات الخوف والشفقة في قلوب قراءه، وهم الانفعالات اللذان تستخدمهما الدراهما بعدها التأثير على المشاهدين، كما أنه بارع للغاية في إخفاء مشاعره الشخصية وعدم إقحامها على السياق، نظائر تاريخه بارد كالرخام بينما باطله يتفجر بالحياة. وكتابته يتميز أيضاً بأنه يتح لكل قارئ بعد أن يعرض عليه الوصف التاريخي أو الخطي السياسية أن يقوم بنفسه باستخدام المغزى الذي يرده لنفسه: فعلى سبيل المثال لا الحصر لم يخبرنا ثوب كيديسيس في كتابه الثاني بعد أن قام بعرض هجوم الطيبيين على بلادنا برأيه إطلاقاً حول هذه الحادثة التاريخية الهامة.

وكانت طريقة ثوب كيديسيس الدرامية تدفعه في كثير من الأحيان إلى عرض الحقيقة التاريخية من خلال وجهته نظر متناقضين بشتاتها - وهذا شائع في خطبه السياسية - وحتى عندما كان من العسير، استناداً إلى الواقع المادي للأحداث، أن يواجه أحد المتعدد من منافسه أو معارضه أو أن يناقشه ويقف وجهة نظره وجهة لوجه، كان مورختنا يجعل أحياناً يجيب على ما يطرح عليه من أسئلة من الآخر، أو يقوم بتقنيق حجيته كما لو كان يقفان كل في مواجهة الآخر. وفي كل الأحوال لم يكن ثوب كيديسيس ليغيب برأي شخصي أو ينغم بوجهة نظر خاصة، بل كان يكشف بالعرض الآمن لكل ما ينظر تأكداً لنا أن نحكم بإنفسنا على الوقائع التاريخية من خلال كيفية حدوثها. كان ثوب كيديسيس إذن حريصاً على لا ينزلق إلى التصور بوجهة نظرة شخصية في كل أمر أو إقحامها يغير داع تعطيله السرد التاريخي للأحداث، كما كان يضع نصب عينيه دائماً لا يتذكر لموضوعيته أو يتناهي صياحه الذي فرضه على نفسه. فاقصى ما يمكن أن نلمع عنده ضد شخص يكون له الكراهية مثل كليون هو أن يصف تصرفاته التي تنضم بالدهشة بأنها تصرفات دبلوماسية. ونحن ننسى دائما أن ثوب كيديسيس جزء لا يتجزأ من مؤلفه التاريخي، وأنه لا ينفصل عنه، وأن نبرهته لا تزال على حلوله لتعلن عن نفسها، وأن ذاتيته لا تبدو بحيث تمس موضوعيته، وهو نادر ما يشير إلى نفسه فتنتكر حينئذ فقط وجوده.
αντιληφθείτε ότι ο θρόκυβος δεν είναι πρόσωπο καθώς και δεν είναι ευθύνη, διότι το θρόκυβος είναι ένας από τους συναδέλφους του θρόνου. Όταν το θρόκυβος αναπληρώνει την ευθύνη του θρόνου, δεν είναι συνήθως ο θρόκυβος ο ίδιος ο θρόνος, αλλά ο θρόκυβος ο ίδιος ο θρόνος, αλλά ο θρόκυβος ο ίδιος ο θρόνος, αλλά ο θρόκυβος ο ίδιος ο θρόνος, αλλά ο θρόκυβος ο ίδιος ο θρόνος, αλλά ο θρόκυβος ο ίδιος ο θρό

σύνεσης πολιτική και δύναμης ερμηνευτική.

τρογκόνενος, το θρόκυβος δεν είναι πρόσωπο καθώς και δεν είναι ευθύνη, διότι το θρόκυβος είναι ένας από τους συναδέλφους του θρό

προφυλάσσεαι δεν είναι πρόσωπο καθώς και δεν είναι ευθύνη, διότι το θρόκυβος είναι ένας από τους συναδέλφους του θρ

κτήμα είς αἰεὶ
خطبة بريخليس الجنائزية

وفي رحاء شهداء الحرب البيلاونيسية،
د. الدكتور الثاني من تاريخ ثوميسيوس.
فصل 35

1- إن كثيرين منا تحثوا قبلي في هذا المقام قد أثروا على من جعل هذه الخطبة (الذين드립니다) جزءاً من طقوس الاحتفال، حيث إن إقامة على أرواح من واريناهم الثرى من شهداء الحرب أمر ينطوي على النيل والعرفان. ومن جانبي فإن لي أن اعتبر أنه يكفي أن تسجع أيات التشريف والتكريم في حفل على صناديد الرجال الذين برمن من أفعالهم على بساتهم، وهو ما تشهد الآن الاستعدادات وهي تجري له على إعلا في هذا الاحتفال الجنائزي، وذلك حتى لا يصبح إيمان الجماهير بضائع هؤلاء الرجال رهن فضحة المتحدث وبلاغته أو عجزه عن البيان.

2- ومن الصعبة هكذا أن نتكلم للرجل بغير حساس في مناسبة يصعب عليه فيها أن يستوقف حتى من الأثر الذي يتركه التقويم الحقيقة: ذلك أن السامع المدرك لحقائق الأمور، ولم يشبه التحيز سيجد أن (وصف جائلاً أعمال الشهداء) مهما بلغ أفراد من أن يعبر عن غيره عنهم أو يفي بما يتمناه لهم، أما غير المدرك لذلك فقد يكون عرضة للاعتقاد بأن (المتحدث) يتجنح إلى البالغة، لو أنه سمع - وهو خاضع لتاثير الغيرة (وصفاً) لبطولة تفوق طاقته أو تعلو على قدرته.

3- وفي الحق أنه يمكن لجمهور السامعين أن يحتفل عناء الإصغاء إلى خطب التأبين التي تم إلقاؤها حتى اللحظة الراهنة إشادة بالآخرين، شريطة أن يعتقد كل فرد منهم أنه بذاته قادر على إنجاز أي (فعل) من الأعمال التي سمع (الإشادة) بها. لكن الغيرة ما تلبث أن تدب في قلوب هؤلاء السامعين فينتبهم الشك ويلون.

38
إلى تكذيب من يجنب إلى المبالغة أو يتخطى الحدود الواجبة (لخطب التابين).

لكن حيث إن أسلافنا منذ القدم قد عبروا هذه (الخطبة) من العادات الحموية
فإنهم يتبعون علي ان أتمتل لتلك السنة، وأن أبذل قصارى جهد ليحقق رجاء كل
فرد منكم وثليبيه رغبته.

قسط

1- وقبل كل شيء سوف أبدأ بأسلافنا: ذلك أنه حق لهم وواجب علينا في الوقت نفسه
نحوهم - في مناسبة كهذه - أن ننسج عليهم آيات التكريم ومظاهر التشريف
تخليداً لذكرىهم. فلقد اتخذوا هنا البلد دوماً موطنأ لسكنهم، وفضل شجاعتهم
على مرتاريخ وتعاقب السنين حتى الوقت الحاضر سلّموه إلينا حراً أبناً.

2- وإذا كان (أسلافنا) جديرين بالثناء فإن أباماً أكثر استحقاقاً له، لأنهم إضافة
إلى ما ألم حوزتهم من (الأسلاف) أورثونا هذه الإمبراطورية الشاسعة التي
نملكها الآن، والتي لم يستطعوا عليها إلا بعد مشقة بالغة وكفاح طويل.

3- والآن فيما يتعلق بما هو منوط بنا إنجازه فإننا، نحن الذين نقف هنا،
ومعظمنا ما زال في شرح الشباب وعفونات القوة، قد استطعنا أن ننسل رفعة
(إمبراطوريتنا)، وأن نجعل مدينتنا في جميع الأحوال قادرة تماماً على كفاية
نفسها بذاتها سواء في وقت الحرب أو إبان السلم.

4- أما عن مأثر (أجدادنا) في الحروب والتي تم عن طريقها اكتساب كل رقعة من
أرجاء (الإمبراطورية)، وكذا عن إنجازاتهم التي تمكننا بافضلها، نحن أو أبائنا
من حماية (إمبراطوريتنا) بحماس منقطع النظر من الغزاة- أجانب أو إغريق
على حد سواء - فإن أطلق العنان لنفسي في الحديث عنها بإسهاب، لأنكم تعلمون
قصة ذلك حق العلم.
5- لكن قبل أن أمشي قدماً في الإشادة بمن قضوا نحبهم أجل لزاماً على أن أشرح في تفسير المبادئ التي ندين لها بمكانتها هذه وأن أوضح فوق أي نظام سياسي أسنا عظمتنا، ومقتضى أية طريقة من طرق الحياة تمكنا من الظهور بها.

6- فمثلا هذه الأقوال ملائمة في نظرتي كل الملاحة للمناسبة الراحلة، كما أنها مجدي كل الجنود عندما تلقى أمام هذا الحشد الغفير من مواطنين وأجانب يضمنون إليها بعناية واهتمام.

فجعل ٢٧

١- إنا نعيش في ظل دستور تقرر شراء قيراتنا عن منافسته، لأن نيراسنا هو (استلهم) واقعنا وليس تقلد قوانين الآخرين، لأن حكمة التي تترك السلطة فيها في أيدي الكثرة لا في يد القلعة تعصر باسم «الديمقراطية». وفقًا لقوانيننا فإن لكل فرد منا نصيب يحظى بمقتضاها حق متساو في الحفاظ على منافعه الشخصية، في الوقت الذي يمكن فيه لكل فرد بارز في ميدانه أن يختار للمناصب العامة بناء على مزايا وفضله، بعض النظر عن مستوى في المجتمع أيها كان هذا المستوى: فالخطر لا يمنع فردًا من إقادة وطنه مما كان ممكناً رقيق الحال.

٢- ونحن نحيا في حريه سواء في أمر حياتنا اليومية أو في شؤون حياتنا العامة. وفي نطاق الاهتمامات التي تشغل حياتنا اليومية قد يحس الفرد منا أحياناً بالغيرة أو الارتباك من أقرانه، لكننا قطعاً لا ننظر بين الفيظ إلى جارنا إذا ما سلك في حياته المسلك الذي يترضيه لنفسه. كما أننا لا نتخذ لأنفسنا سمت الساخرين المستهيزين أو ندأ ذلك يتعكس على ملامحنا، فرغم أن مثل هذه التعبيرات لا تتطوّي على الفرد والأدي إلا أنها تبعث على الاستياء.

٣- وأيًا كان الأمر فبرغم هذا التساهل في أمر حياتنا الخاصة إلا أننا حريصون أشد
الحرص على كبح جماح أنفسنا في التصرفات التي تسهم شئون حياتنا العامة:
فنحن نناشد التوقي ونتنزل بالطاعة نحو من يشغلون منا المناصب العامة، ونبداء
ذات الاحترام للقوانين، خاصة ما يهدف منها إلى إسباغ الحماية على المعلومين،
وكذا للقوانين غير المدونة التي يعتبر انتهائها تصرفًا يجلب الخزي والعار.

۳۸۹

۱-
وعلى ذلك فقد أفلحنا في أن نضمن لأراحنا ونحصل لمكايلا على فترات من
الكثرة يمكن سوء من الاسترخاء أو الراحة من العناية: وذلك عن طريق إقامة
الاحتفالات وإحياء الهزات التي تقدم فيها الأضاحي طوال العام، وعن طريق
العلاقة مناظرتنا وتنسيق أثاثها. فإن البلدية التي نجدها كل يوم في هذه المظاهر
لكنها بدرة الهم وإبعاد الحزن عن حياتنا.

۲- وسبب عظيمة بلادنا فإن كل ما يتجه العالم من منتجات يجد إلى (دولتنا)، مما
ترتب عليه أن خيرات الأقطار الأخرى قد غدت كلها بالفعل خيراتنا، لتشت هي في
أوطتنا سواء بسواء كالخيرات التي تنتجها بلادنا ولا تعدها غريبة علينا.

۳۹

۱- كما أثبتنا مختلفن في ميادين شتى عن أعدائنا جد الاختلاف، ويبه خاص في
التدريبات العسكرية والاستعداد للحرب: فقد أثبتنا مفتوحة بارزة لنا للجميع،
ونحن لنصفي منها الآجان ولا نمنع أبداً منهم في أي وقت من معرفة أي أمر
أو رؤيته (بأن جميع ما في بلادنا) واضح جلي للعيان، حتى لو أدى هذا إلى أن
يطلع أحد أعدائنا على ما يمكن أن يعتبر بالنسبة له أمراً ذا قيمة أو فائدة.
فإن الواقع أثبتنا نعلم في كل أعمالنا على سجانا أكثر من اعتنادنا على خطط
الحرب والخذاق، وفي مجال ترقب النشر فإن العلمان (من أعدائنا) يتلقون منذ

۴۱
نعومة اظهارهم تدريباً شاقاً عنيناً بهدف اكتساب الشجاعة ومضاء العزيمة، أما نحن فقادرون رغم أن حياتنا غير مكبلة بالقيود على تحمل أخطار تعاون ولا تقل بحال من الأحوال عن تلك التي يجابهنها.

2- دليل ذلك أن الاسباطيين لا يجسرون على غزو بلادنا وحدهم بل (يهاجمونا).

مصوحين بكل حلفائهم، أما نحن فنهاجم أراضي البلدان المجاورة لنا بعمقنا.

ورغم أننا نقاتل على (ثرب) أجنبي وضد قوم بلوبيون (بزواهم) عن ديارهم.

إلا أننا نكتسب الشطر الأكبر من جماحلهم بغير مشقة تذكر.

3- وحتى الآن لم يجابعنا في ميدان القتال قوتنا مجتمعة، وسبب ذلك أننا نرسل جنودنا برأى إلى جبهات كثيرة في ذات الوقت الذي نبعث فيه بباسطيلنا (بحراً) لخوض غمار الحرب.

ومع ذلك فإن أعدادنا حينما يتصدرون لشطر غير كبير من جيشنا ويدعون لهم الانتصار عليه يباهن بأنهم شهيداً جمليعاً، وعندما يلاقين الهزيمة على أيدي حفنة منا يزعمون أنهم دحروا من جماحل جيشنا.

4- ولا ريب إنه إذا كان هدفنا هو مواجهة الخطر بقلب ثابت جسور أكثر من محبهما بالتدريب الشاق العنيف، وما أثر عننا من بسالة لا تتسنى بقوانين الشجاعة الصغر أو أساليب الطاعة العمياء، فنحن الرابعين حقاً: ذلك أننا لا نستسلم للهم والحنين قبل الآخرين، ولا نتحجج المتاعب قبل وقوفها بزمان.

لكن إذا ما قدر علينا أن نقابل هذه المتاعب ووجهًا لوجه فإننا نديدي من الشجاعة نفس القدير الذي يبيده أولئك الذين ظلوا نموياً يتدرون من أجلها ويسعدون. غير أن هذا ليس هو الميدان الوحيد الذي استحقته من أجله دولتنا الإعجاب في ميدان أخرى تجعلها خليقة بهذا الإعجاب.
فجعل ۰۴

۱- فنحن نعشق الجمال في بساطة ونحب المعرفة بغير ليونة أو طروحة. كما أننا نتخذ الثروة وسيلة للعمل في الحياة لا موضوعاً للتفاخر والمباهاة؛ وليس ما يُحتج المرء عندنا أن يُصرح بفقره، لكن الخجل كله الخجل أن يتقاعس المرء عن طرد شبع الفاقة والمسجفة بالكد والعمل.

۲- وإذا كانت أمور معيشتنا الخاصة تستهلك من وقتنا الكثير فنحن لا ننهل مع ذلك شئون السياسة بحال من الأحوال; فرغم أننا حريصون على تلبية مختلف الاهتمامات وتحقيق كافة الرغبات إلا أن معرفتنا بشئون حياتنا العامة وافية. ونحن ونحن الذين نعتبر من يضرب صفاً عن المشاركة في هذه الشئون (العامة) شخصاً بلا فائدة تُرجى أو قيمة تذكر، لا مجرد إنسان عزوف عن الاهتمام.

وحن على الأقل ننتمي بسلامة أحكامنا وصحة وجهات نظرنا حينما لا يكون بوسعدا أن نتوصل إلى أراء سياسية جديدة. كما أننا لا نعتبر النقاش أمراً يعوق تنفيذ الفعل، فما يعوق هو بالأحرى نقص الدراية وانعدام وضوح الرؤية قبل اتخاذ التصرف اللازم بوت كاف.

۳- وفي الحق فإن الموت التي نحظى بها على وجه الخصوص في أننا لا نقل جسارة عن سائر الأقوام رغم أننا نفكر ملياً قبل أي خطوة تقدم عليها، مع أن الجهل بالنسبة لسواتنا سبب للجسارة والاستفراق في التفكير والتأمل دافع إلى الترد والإحجام. ولا جدال في أن أولئك الذين يمكن اعتبارهم عن حق الأشجع رجاءً هم من يدركون بجلاء بلادنا (الحروب) وويلاتها، ونغم (السلام) ومزاياه، وهم الذين لا يحجبون بسبب ذلك عن مواجهة الأخطار.

۴- وفي الفضل أيضاً نحن نحن نختلف عن الآخرين، فنحن نكتسب أصدقانا بحسن صنيعنا لهم لا بحسن صنييعهم لنا. ومن يسدي الجميل هو دوماً الصديق الأوفي.
لأنه يشعر بالامتنان نحو الشخص الذي صنع له العروف بنفسه، سواء راضية؛ في حين أن من نال الفضل وتلقى الجميل يكون في العادة أميل لعدم الاكتضات، لأنه يعلم أن رد حسن الصنيع من جانب ليس اختيارياً بغير مقابل بل واجب والتزام.

5- ونحن وحننا الذين نمد يد العون لغيرنا بصرف النظر عن أية اعتبارات تمس مصالحنا اعتمادًا منا على الثقة التي ننتمي بها صراحة تجاه مؤسساتنا الحرة.

6- فصل 1 ٤ ١

1- وفي الإجمال فإن مرادي هو القول بأن مدينتنا بأسرها أنموذج تتعلم منه بلد اليونان، وأن كل مواطن بين ظهرانينا قادر فيما يلوج لي على تطبيق نفسه عن رضا وطمئن خاطر لعلم المتغيرات (في مجتمعه) بكل ما يملك من حصافة رأي وكياسة.

2- وليس في قولنا هذا نوعًا من التفاخر أو المباهة بمناسبة هذا الاحتمال بل الأخرى أن حقيقة مؤكدة، وبرهانًا على ذلك مستند مما اكتسبناه لوطننا من قوة ومنعة بفضل هذه الخصال ذاتها.

3- فمدينتنا - من بين كل المدن القائمة في عصرنا هذا - إذا ما تعرضت للاختبار، فهي وحدها التي تستطيع أن تثبت أن حقيقتها أعظم من شهرتها، وهي وحدها التي لا تتحلى نبعتها من الشفهية (بالخزى) بسبب أن الميَّة بالنزعة على يقين (خاطي الذكر)، كما أنها وحدها التي لا تنفع شعيرة سمباً يلهم بها لأنه يرجح تحت حكم من هم أعلم منه استحقاقاً أو أدمي جدارة.

4- إن الدليل على عظمتنا جلي واضح لا يحتاج إثباته إلى مزيد من الشهود: فلسوف نصيح أعمى هذا العصر وأعمى الأجيال التالية. ونسنا بعطفين إلى إشادة
بنا أو ثنا نحن سواء من هوميروس، أو من قبل أي شاعر آخر، قد يلغي شعره
صدور الناس برغة من الزمن ما تلبث بعدها الحقيقة أن تتجلى سايرة فتفسد
انطباع الناس عن الواقع. فقد أجرينا كل أرض وأثرتنا كل بحر قسراً أن يصبح
امتداداً (لامبراطورتيتنا) الجسور، وليس هناك مكان يخلو من آثار أفعالنا
الخالدة أو من موافقنا الماضية.
5 - هذه هي المدينة التي سعي هؤلاء الرجال جاهدين من أجل ألا يحرموا من شرف
الانتماء إليها، والتي ذاقوا في سبيلها كأس الحمام، وهم يخوضون غمار
الحرب في ساحة النزال، والتي يتعين على كل من يقي منهم على قيد الحياة أن
يبذل من أجلها طاعة كل مرتضى وغال.
2 ـ فقيل 2
1 - فإن كنت حتى الآن قد تحدثت باستفاضة وإسهاب عن شئون دولتنا فماري هو أن
أبين بجاء أن لدينا مدفناً تناضل من أجله، وهو هندس أسمى وأبعد ما يكون عن
منال هؤلاء الذين لا يتمتعون بما نحظى به من ميزات. وغايتي في الوقت نفسه
هي أن أعرض الأسباب والحييات التي تثبت أن إشادتي هنا بـ هؤلاء الشهداء كانت
أمرأ لما يبرره.
2 - وفي الحق أن ما قلته الآن هو أعظم شئ عليهم: إذا أنهم استعنا بأفعالهم الباسلة
رونقًا وبياء على تلك الأمجاد التي أشدت بها أنيفاً. وفي الحق أيضاً أن أولئك
الذين يمكن التدليل على أن شهرتهم معايدة لأفعالهم هم قلة من الإغريق لا
كثرة منهم. وفي ظني أن نهايةهم الفاجعة سواء حانت وهم في ريعان الشباب أو
عند دنو الأجل وختام العمر هي الدليل الناضع على شجاعة الرجال.
3 - وحتى لو كان هؤلاء الرجال قد أسرووا على أنفسهم فاقتربوا كثيراً من الآثم، فمن

٤٥
العدل أن توضع المسألة التي أبدعها في سبيل وطنهم فوق كل اعتبار آخر. فالحسنتين يذهبان السينات، كما أن الخدمات التي أبدعها للصالح العام من شأنها أن تكفر عما بدر منهم من أثام، وأن تحول كل أثر (ما قد يوجد في) تصرفاتهم الشخصية (من أخطاء جسما).

4- فليس هناك واحد من هؤلاء الشهداء قد أرسله الرغبة أو أوهمه الطرح في أن يستائر أو ينعم بشراء لمن يغضب له معين، لا لم يجعل واحد منهم من الخطر الذي قد يحقق به، وبإبادته فيما لو تبدأ حبه يوماً من الفنى والليسر إلى المسافة والفرقر. ذلك أنهم أبدعوا أن الثمار من عدوهم غاية يتوقفون لنبيلهم أكثر من رغبتيهم في الاستحواز على متع بعينها. وأمنوا أن هذه هي أبدع الغاية وأشرف المقصود، وأن سبيل تحقيقها رهن بأمر واحد لا سواه هو الالتزام من الأعداء قبل الانغماس في المتاع والمذاك.

5- لقد تركوا أمر نجاح مساعهم في مستقبل الأيام - وهو مصير من الصعب التكهن به - تركوه للأمامي والممال، لكنهم فيما يتعلق بواقع حياتهم الراهن اعتمزوا الاعتماد على النفس وحدها دون سواها. وفي سبيل تنفيذ هذا الذي اعتمدو اعتقذا أن الأشرف لهم أن يصممو وأن يقولوا بها كما تكبوا من خسائر، لأن يستسلموا بغيضة إنقاذ حياتهم أو النجاة بأرواحهم. إنما كانوا يفرون منه فراراً هو الخزي وسوء السمعة، لكنهم في ساحة الوفى صممو في مواقعهم: وما أن أزفت الأزمة وحانت اللحظة التي خطتها يد القدر لهم، رحلوا عن الحياة، لا من خوف ورهبة من النزال، بل في ذروة الجهد وشجاعة الرجال.

6- هكذا قضاوا نحبهم وكان استشهادهم إنجازاً يليق بعظمة وطنهم. أمّا نحن الذين كتبنا للحياة من بعدهم - مع أن الواجب يفرض علينا أن نبتهل للأرباب من
أجل حياة أكثر أمنًا وأقل خطرًا - فعليًا أن نوطن العزم على قتال أعدائنا ببسالة لا تقل بحال عن الأحوال عن سالتتهم. وإنما لأننا بكم يكون حكمكم على الفائدة المرجوة مستمدةً فقط مما سمعتموه مني من كلمات: فأي نفع يمكن أن يرجى حقًا من الإسهاب في مثل هذا الحديث إن كانت كلماتي عن أمر تعلمنه حق العلم؟ ولماذا يتتبعون علي أن أعد مزايا التصدي للأعداء رغم أنها جليلة واضحة للعيان؟ إنني أهيب بكم أن تعمموا النظر في عظمة مدينتنا التي تزداد يوماً بعد يوم، وأن تتعلموا كيف تحسنها، بل كيف تصبحون لها من العاشقين. وعندما تتبدى أمام أعينكم بكل أمجادها تذكروا أن المنعة التي تحققت لها والسيدة التي حظيت بها كانت على أيدي رجال أوضحوا بشجاعة منقطعة التنظر أنهم يعرفون واجبهم حق المعرفة، وأنهم إذا ما حانت ساعة النزال يدركون معنى الشرف عن بصيرة. ولو قدر عليهم أن يفعلوا في تحقيق هدفهم أو بلوغ أهدافهم فهم لا يدعون وطنهم يخسر بسبب هذا إقدامهم أو يحرم من سالتهم، بل إنهم يمنحون له هذا عن طبيب خاطر ويقدمون له كأعظم عطاء يمكن التقرب به إليه.

2- فهم إذ يبذلوا أرواحهم من أجل الصالح العام فإنما يحوزون لأنفسهم مجدًا لا يشيع أبداً. أما إن أشرف القبور طولاً ليس ذلك القبر الذي توارى فيه أجسادهم، بل هو الذي يبقى في خالدة على اليوم أمجادهم، كي يتذكرا الناس في كل مناسبة مماثلة سواء بالقول أو الفعل.

3- فالأرض بسرها هي المثوى لشاهير الرجال، حيث إن مأثؤهم لا تسجل في وطنهم فحسب نقشًا على الأحجار، بل إن صيتهم يذيع أيضًا في سائر الأقطار، حيث تبقى ذكراهم حية في قلوب الرجال بغير أن تنقص فوق جدار أو تدوم على أحجار.

4- فليكن (هؤلاء الشهداء) إذن أنموذجاً لكم ومثالًا تحتذروا في حياتكم، وتأكدوا أن
السعادة تتبع من الحرية، وأن الحرية تكمن في الشجاعة: فلا تلقوا بالألغاز في الحرب أو تهربوا أهوال الغزاة.

6- فال甜سماء الذين خُطوا حتى الأنقاق في تعاون لا أمل في الخلاص منها يتغذى عليهم، إنما يذل النفس راضياً ويجدر بالروح طائعاً أولئك الذين يحسون بهول الفارق وحسامتهم لو أنهم ضاقت بهم الفشل أو نذبت مساعدتهم أوراج الرياح.

7- وفي الحق أن الإذلال والامتثال لناتجين عن الجبن والعار لأشد قسوة على نفس الإنسان الأمي، وشدد إيلاماً لمشاعره من الموت الذي لا يشعر به فيهما لحيل به، إذ أن البساطة تلتهم مشاعره (فتصرف عنه) هذا الألم الخاصة عندما يشاركه حماس الرفاق من بني وطنه والأترب من بني جلدته.

8- ففعل 4.

1- هذا هو السبب الذي من أجله لا أشعر بالأسى على من فقدهم من بين الحاضرين.

فذاك أكادهم، بل إنني بدلاً من ذلك أعزؤهم في محنتهم وأؤسيهم في مصابهم.

ذلك أنكتم تعلمون في غيرما ما أنتم فيه من مصائب جليل بكر بعظام أن الحظ السعيد سيكون من نصيب من يحظى بحزن نبيل كحزنكم، أو ذلك الذي بلا مقاومة مشرفاً كمبيهم، وأن السعادة (الحلقة) هي من تعاوّدت خلال سنوات عمرهم كفة البناء مع كفة الشقاء.

2- وللاذ ذلك فإني أعلم حق العلم أن من الصعوبة ممكن لا يحس الإنسان باللهفة والحنين إلى هؤلاء الراحلين، خاصة وأنه سوف تذكرك بهم نوماً حظوظ نعم بها الآخرين في حياتهم وتعتمد أنتم بها من قبل: فالملوء لا يأسى على غياب نعم حريماً منهما قبل أن يحظى بها ويدرك قيمتها، بل على النعم التي فقدتها بعد أن عاش أبداً طويلاً برفق فيها.
٢- وأياً كان الأمر فإن عليكم أن تتجلدوا ويلتلونوا بالصبر، فهناك لدى البعض منكم من يمتد أمامه العمر، ولا تنقصه القدرة على إنجاب الأطفال أمل في أن يحظى بأبناء آخرين. كما أن الأبناء الذين سيولدن في بيتكم سوف يكونون عوناً لكم على نسيان خسارتم في أبنائكم الراحلين. وبذلك سوف تكون المدينة كسباً مضاعفاً.

فهناك من عدم الرجاء وستضمن في الوقت نفسه أمها. وإن أي فعل يقدم عليه المواطن لن يصبح في واقع الأمر تصرفاً سياسيًا مخلصاً لدولتنا الديمقراطية أو لبايغنا العادلة ما لم يكن لهذا المواطن، بمعنى ما هو للآخرين. أبناء بيدلانون من أجل الوطن كل مرتخص وغال.

٤- أما أنتم، يا من تختتمون في أعمالكم مرحلة الكبوة، فإن لكم أن تعتبروا أنكم قد حظيت بنعمة سابقة وفضل غامر: إذ عشتم الشتر الأكبر من أعمالكم في عز وفخار. وذكروا أن ما بقي أمامكم من عمر تعليوشونه لا يعو سوى سنوات قليلة، فالتمسوا السلوى لنفستم فيما حظي به أبنائكم الراحلين من ذيوع صيت وشرهة طبقت الأفاق. فحس الشرف هو وحده الذي لا ينهر في الحياة ولا يشيخ. ومنذما تضعف قوة أجسامنا وتهزها الشيخوخة فليس المال - كما يذهب البعض في قولهم - هو الذي يحقق السعادة أو يجلب النعمة بل الشرف.

٥- فصلى

١- وأنتم، يا أبناء الشهداء أو إخوكم، أمامكم كما أرى مهمة شاقة للغاية: إذ يصعب وجود معيار يمكن الحكم به عليكم بالقياس إلى إنجازاتهم الخارقة، وليس من المتاعل أن يتيسر لكل فرد منكم أن يصل بثانيه عليه إلى المستوي الذي يعادل (سمو) قدراهم، بل إنه ليهبط في ثنائه إلى ما دون ذلك بقليل. ذلك أن مشاعر الغيرة تستبد بقلب البشر (حقداً) على منافسيهم طالما هم على قيد الحياة، لكن عندما ينضج الستؤلاء المنافسين من الطريق فإن الاحتقار بتكرمهم يلقب القبول.
من الكاففة ويوحي بالرغبة الطيبة من الجميع.

- وإن كان لي أن أوجه كلمة لهؤلاء النساء اللائي سوف يعشن حياة الترمل عن فضائل المرأة فإنا فإنا أجعل كلمتي هذه في صورة نصيحة موجزة: ذلك أنه لفخرا وشرف
لكن لو تعلمون عظيم لو أنكن التزمني بالخلاص التي تميز طبيعتكم وتفق مع جنسنكن النسوي، فحرصنا على ألا يتحدث أحد عننكن قدر الإمكان إلا بالقليل.

- ففعل ـ ٤٦.

- ۱- ما قد أدبت واجبي فتحدثت بما أمكنني قوله وما يتناسب مع جلال الحفل وقائمه.
رها هو قسط من آيات التكريم قد تم بالفعل إصداؤه الآن في هذا الحفل الجنائز.
على أرواح شهدائنا. أما فيما يتعلق بما بقي لهم من ظهور التشريف فإن الزيارة سوف تضع على كاهلها عبء تربية أطفالهم وسطعل بتعمهم على نفقاتها. إبداء
من هذه اللحظة وحتى بلوقهم شرخ الشباب. فهذا هو النتاج المروع الذي تمنحه
المدينة لهؤلاء الشهداء ولذريتهم من بعدهم، جزاءً وفافقاً على ما قدموه لها من
انصارات. وكلما كانت جائزة البسالة أعظم كلما كان إخلاص المواطن لوطنه
أقوى وأشد.

- والآن.. حالما تفروحن من إبداء مشاعر الحزن المستحقة على نويكم ومن ذرف
dموع عليهم. فإنكم أن تقولوا عائدين أدرجكم إلى منازلكم.